سفر خالد بن الوليد
من العراق الى الشام

- ٣ -

تفضيل الروايات :

نبدأ أولاً بالروايات التي زعمت أن خالداً دخل الشام عن طريق تدمر وقد اعتمد عليها كايتاني ودي خويه كما سبق بيانه .

أولاً — رواية الواقدي وفيها أن خالداً خرج من سوى الى الكواثل وأتى بعد ذلك قرقيسيا وأرك ، ثم دومة الجندل فقصم فالقريتين فحوارين حتى بلغ مرج رهط والكواثل كما أثبته موسل في خريطته محل ماء واقع على بعد خمسة عشر كيلومتراً غربي ، جنوبي غربي (الميادين) أما قرقيسيا فهي مدينة قديمة واقعة على ضفة الفرات اليسرى في مصب الخابور وذهب موسل الى ان قصم في (خان المنقورة) على طريق (تدمر ـ دمشق) الروماني على بعد ستين كيلومتراً شرقي ، شمالي شرقي ضمير . وهو Casama الرومانية . وذكرها بواديبارد في خريطة المواقع الرومانية في بادية الشام ، بقرية النبك [1] على طريق (حمص — دمشق) الروماني . وقصبة النبك واقعة في منتصف الطريق بين حمص ودمشق . وذكر دوسو أيضاً في كتابه « طبوغرافية سورية التاريخية القديمة والوسطى » في صفحات ٦٤ : ٦٦ ان Casama هي قصبة النبك وأثبتها في الخريطة المربوطة بكتابه [2] .

---

(١) المجلد الثاني لكتاب (آثار روماني في بادية الشام) يتضمن الخرائط والرسوم والصور.

(٢) Topographie Historique de La Syrie, Par René Dussaud, 1927.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لهذا ينبغي أن نعتبر قصمة أو قصم القصبة الحالية نبك على ما ذهب اليه الكاتبان الفرنسيان الاخصائيان . أما موقع أرك فقد ذكرها ياقوت في معجمه وقال هي مدينة صغيرة في طرف برية حلب قرب تدمر وهي من فتوح خالد ابن الوليد عند ما سار من العراق الى الشام . وهي (ورك) الحالية و (Harac) الرومانية في شمالي شرقي تدمر على بعد خمسين كيلومتراً على الطريق الروماني القديم بين تدمر والرصافة . وكان فيها حصن روماني لحراسة الحدود .

ولنبحث الآن في رواية الواقدي ولنتحقق من صحتها . قال الواقدي ان خالداً خرج من سوى الى الكوائل والمسافة بينهما خطاً مائتان وخمسون كيلومتراً . والمسافة بين الكوائل وقرقيسيا ثلاثون كيلومتراً . واذا صدقنا الرواية فيكون خالد قد شرق من سوى الى قرقيسيا وبها بلغ ضفة الفرات ، ثم توجه غرباً الى أرك والمسافة بينهما خطاً مائة وخمسة وثمانون كيلومتراً . وذهب من أرك الى دومة الجندل والمسافة بينهما خطاً خمسمائة وخمسون كيلومتراً ، هذا اذا فرضنا انه توجه الى دومة الجندل رأساً ، متوجهاً نحو الجنوب قاطعاً البادية . وزعم الواقدي ان خالداً سار من دومة الجندل الى قصم والمسافة بينهما خطاً أكثر من خمسمائة كيلومتر . ولم يذهب من قصم الى مرج راهط رأساً بل توجه شرقاً الى القريتين ثم عرج على حوارين وانتهى أخيراً الى مرج راهط . والمحل هذا واقع قريباً من قرية عذراء أو عدرا الحالية على بعد خمسة وعشرين كيلومتراً شمالي ، شرقي شمالي دمشق . ويبدو من المسافات التي ذكرناها ان خالداً بعد تفويزه الى سوى وقد قرب من دمشق نحواً من مائة وخمسين كيلومتراً وبلغ حدود الشام شرق وغرب ونزل جنوباً وصعد شمالاً . وبذلك قطع أكثر من الف وخمسمائة كيلومتر على أقل تقدير يضاف الى ذلك المدة التي قضاها في القتال والحصار والفتح وعقد الصلح وغير ذلك من الأعمال . وقضى هذا الوقت الطويل مشرقاً ومغرباً تاركاً هدفه الأصلي وهو الاجتماع بالمسلمين في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الشام ، قبل أن يهاجمهم الروم بجموعهم . والذي يدرس الرواية على الخريطة ويثبت الأماكن يتجلى له ان رواة الواقدي حشروا في رواياتهم فتوحاً تمت على يد خالد قبل سفره من العراق وفتوحات أخرى تمت بعد انضمامه الى المسلمين واشتراكه معهم في الحروب التي وقعت سنة ثلاث عشرة هجرية . ومن المعقول أن يتوجه خالد ، بعد وصوله الى سوى ، قاصداً الى الشام ويلاقي جمع غسان في مرج راهط . لهذا اذا نقحنا الرواية من أعمال خالد قبل سفره وأعماله بعد حروبه في الشام ، تطابق الرواية الواقع وتدل على أنه خرج من سوى وتوجه الى مرج راهط .

ثانياً رواية المدائني : روى المدائني أن خالداً بعد أخذه أمر ابي بكر بالشخوص الى الشام توجه الى صندوداء فقاتل من فيها ، ثم لقي جمعاً في المصيخ والحصيد ثم فوز من قراقر الى سوى ، ثم أتى أرك وتدمر والقريتين وحوارين وقصم حتى انتهى الى مرج راهط . وهو في طريقه هذا يقاتل ويحاصر ويصالح . وبديهي أن الذي يقرأ هذه الرواية ولا يعلم محل قراقر وسوى يظن أن خالداً سار الى الشام على ضفة الفرات اليمنى ، من ناحية البادية أي طريق القوافل من الأنبار الى السخنة فأرك ، فتدمر ، فحوارين ، فقصم وانتهى الى مرج راهط وهذه الطريق طويلة وتكثر فيها المياه .

ولنثبت المواقع التي وردت في رواية المدائني . أما صندوداء ولم يثبتها ياقوت واكتفى بذكر الوقعة ، فقال ان خالداً سار يريد الشام فأتى صندوداء وبها قوم من كندة وإياد والعجم فقاتلهم . وثبت موسل صندوداء في محل المشهد الحالي الواقع شرقي الرمادي على بعد خمسة كيلومترات وذكر ابن منقذ في كتابه الاعتبار انها كانت ضاحية من ضواحي الأنبار وذكر كتاب المراصد انها في الضفة الغربية للفرات في أعلى الأنبار .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لم تضبط المعاجم والتقاويم المصّيخ و لحُصيّد وذكر ياقوت ان المصيخ بين حوران والقلت ، وحوران هذا هو وادي حوران الذي يجري من بادية الشام ويصب في نهر الفرات بين جِبّة وآلوس . وأضاف الى ذلك مُصّيغ بهراء فقال ان خالداً ورده بعد سوى . وذكر عن الحصيد انه موضع بأطراف العراق من جهة الجزيرة . وقال نصر إنه واد بين الكوفة والشام . ولكن موسل استند الى رواية سيف بن عمر الباحث عن فتوح خالد في الفرات الأوسط قبل بلوغه الشام والتي اعتبرها موثوقة لأنها تدل بجملتها على أن رواة سيف كانوا عالمين بجغرافية البلاد حق المعرفة .

ذكر موسل انه لم يجد المصيخ ولكنه ثبت موقع القلت وهو واد صغير يسمى الآن (ابو قلته) يلتقي بالفرات جنوبي هيت . والطريق بين عين التمر والسخنة يقطعه . وما دام موقع المصيخ بين القلت ووادي حوران كما أشار ياقوت أي على الطريق التي سار فيها خالد قبل التقائه بجموع تغلب في المصيخ ، فينبغي ان يكون على هذا الطريق . قال موسل انه لم يجد محلاً باسم المصيخ ولكنه وجد محلاً فيه ماء كثير ، يسمى الآن (عين الأرنب) وكان المحل هذا لقبيلة نمر ورد ذكره في الأغاني[1] . لم يثبت موسل موقع الحصيد ويظهر من رواية سيف التي عرضت لغزوات خالد بين الأنبار وجبل البشر أنه أقرب الى عين التمر منه الى المصيخ ، لهذا ينبغي ان يكون شمالي عين التمر وجنوبي القلت .

واذا ما درست رواية المدائني بعد تثبت موقعي صندوداء والمصيخ يتضح ان خالداً لما أخذ أمر ابي بكر لم يتوجه من عين التمر رأساً الى الشام وتوجه أولاً الى صندوداء فقاتل من تجمع فيها ، ثم توجه الى الحصيد والمصيخ ولقي جمع تغلب وغيرهم فيها وتغلب عليهم ، ثم غير وجهته وذهب الى قراقر ففوز الى سوى .

(١) البادية العربية ص (٣١٠) Arabia Dezerta .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لماذا يتوجه خالد من عين التمر الى صندوداء وقد أراده ابو بكر على الشخوص الى الشام فقطع مسافة تسعين كيلومتراً ؟ ثم توجه الى المصيخ والمسافة بينه وبين صندوداء مائة وخمسون كيلومتراً ، لأنه مرّ ببردان والحنى كما ذكره سيف بن عمر ؛ والطريق الى المصيخ يمر بهما . والمعقول أن يتوجه خالد من عين التمر تواً الى قراقر ، ما لم تبلغه أمور تستدعي حضوره الى صندوداء ورأى انه لا بد من البت فيها قبل السفر . والمسافة بين المصيخ وقراقر خطاً نحو من اربعمائة كيلومتر . واذا وقع هذا فعلاً فإن شخوصه الى أرك بعد تفويزه من قراقر الى سوى لا يمكن قبوله على ما أشرنا الى ذلك حين نقد رواية الواقدي . لهذا ينبغي أن تعتبر أعمال خالد في صندوداء والحصيد والمصيخ أعمالاً قام بها قبل استلامه أمر ابي بكر بالسفر الى الشام . أما أعماله في أرك وتدمر والقريتين وحوارين وقصم فلا بد أنها وقعت بعد انضمامه الى جيش المسلمين وفتح بصرى وأجنادين .

ويفهم من كل ما ذكرناه آنفاً ان زعم القائلين ان خالد بن الوليد شخص من العراق الى الشام عن طريق (أرك ـ تدمر ـ القريتين ـ حوارين) زعم خاطئ . واذا نظر المرء خريطة مواقع الرومان في بادية الشام والمصورات التي وضعها مؤلف كتاب طبوغرافية سورية في القرون القديمة والقرون الوسطى يرى أن أماكن الحصون والقلاع والمخافر التي أقامها الرومان على ذلك الطريق من الفراض الى دمشق منتشرة في شمال الطريق الروماني والى جنوبه وتكاد لا توجد قرية أو بئر الا وعليه حصن أو معقل أو مخفر . صحيح أن الروم كانوا قبل الفتوحات العربية قد تغلبوا على الفرس بقيادة الامبراطور هرقل وانهم لم يعودوا يخشون بأس الفرس ولا سيما وكانت فارس وقتئذ تموج بثورات داخلية وانقلابات ؛ غير ان قبائل تغلب المعادية من جهة ، وسعي الأهلين الى الدفاع عن أموالهم وماشيتهم وامداد الروم لهم من المراكز العسكرية الخطيرة كالفراض

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وتدمر والرصافة من جهة أخرى لا تدعو خالداً الى المجازفة بقوته القليلة بالسير في تلك الطريق . يضاف الى ذلك أن قبائل تغلب كانت تستطيع دائماً ، كما أشار موسل ، أن تطمر الآبار في طريق خالد وتفسد ماءها .

فكيف يتسنى لخالد أن يجتاز أرضاً معادية له في سفره من الأنبار الى تدمر والمسافة بينهما خمسمائة كيلومتر ؟ واذا لم يسلك الطريق البعيدة عن ضفة الفرات ، فينبغي له أن يمر بوادي الفرات ويصطدم بالقرى المحصنة ، ويبدو من رواية الواقدي انه لم يجرؤ على مقابلة من تجمع من أهل فرقيسا بقيادة بطريقها فتركهم وانحاز الى البر . هكذا يتضح مما ذكرناه آنفاً ان الأعمال التي قام بها خالد والتي حدثت في أماكن بعيدة عن طريق سفره الى الشام سواء أكانت طريق (الحيرة ـ قراقر ـ سوى ـ مرج راهط) أم طريق (عين التمر ـ قراقر ـ سوى ـ مرج راهط) ما هي الا فتوحات وقعت قبل سفره أو بعد سفره . وقدمنا القول ان الطرق التي تقطع بادية الشام من الشرق الى الغرب لا يصح الركون اليها في سفر خالد لأن مياهها قليلة لا تستطيع الخيل أن تسير فيها .

السبب الذي حدا بخالد على التفويز :

أي الطريقين سلكهـا خالد ؟ طريق (الحيرة أو عين التمر ـ قراقر ـ سوى ـ مرج راهط) او طريق (الحيرة او عين التمر ـ دومة الجندل ـ قراقر ـ سوى ـ مرج راهط) . وما هو السبب الذي حمل خالداً ، بعد بلوغه قراقر ، أن يفوز الى سوى بدلاً من ان يسير في طريق القوافل المارة بوادي السر ، التي تنتهي ببصرى أو بأذرعات ؟

روى ابن اسحق أن خالداً أخذ كتاب ابي بكر في الحيرة فتوجه الى عين التمر ومنها سار الى قراقر ففوز الى سوى ثم توجه الى مرج راهط . لم يذكر ابن اسحق المنازل التي نزل بهـا خالد بين عين التمر وقراقر . تُرى هل سار

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بطريق (عين التمر ـ الأخدمية ـ الخفيـة ـ الخلط ـ قراقر) التي ذكرها ابن خرداذبه وثبتها موسل بالأسماء الشائعة الآن ، أي (عين التمر ـ شعيب الخدمية ـ غدير الخليط ـ خفاية لاهة ـ قراقر) ؛ ام انه سار بطريق (الحيرة ـ الرهيمة ـ البخيت ـ القراي ـ الخنفس ـ الحُسية ـ الفرنقة ـ القراقر) ، وقد ثبته موسل بالاسماء الشائعة كما يلي : (الرهيمة ـ البرّيت ـ غدير الغرابي ـ عمارة الخنفس ـ بريكة أم أحْسَيّة) .

أما الطريق الأول وهو الطريق الشمالي فلا يختلف كثيراً عن الطرق الشمالية الأخرى التي تقطع البادية من الشرق الى الغرب لأن الماء فيها قليل لا يتأتى لقافلة كبيرة أن تسير عليها ، لا سيما اذا كان فيها خيل . أما الطريق الثانية فمع أنها أحسن من الطريق الأولى فلا يحتمل ان خالداً سلكها . ولو لم يذكر سيف بن عمر والواقدي وموسى بن عقبة ومصعب بن عبد الله في رواياتهم ان خالد بن الوليد مر بدومة الجندل لجاز لنا ان نميل الى أن خالداً سلكها . وقد أبد موسل ان الماء مفقود فيها في مسافة اربعمائة وخمسين كيلومتراً أي من البرّيت الى قراقر ، لهذا من المستبعد جداً ان يمر بها خالد والموسم كما سيتضح لنا بعد حين ، ليس موسم امطار . اذن لم يبق الاّ طريق (الحيرة ـ دومة الجندل ـ قراقر ـ سوى ـ مرج راهط) والقسم الأول منه الى قراقر تسير فيه القوافل وفي منازله مياه كثيرة في الآبار والبركات الكبيرة . انه طريق طويل ولكنه امين .

قلنا ان ابن اسحق لم يذكر في روايته المراحل بين عين التمر وقراقر ويدل هذا السكوت على ان خالداً مر بالطريق العادية اي طريق (الحيرة ـ دومة الجندل ـ قراقر) بحيث لم ير الرواة حاجة لذكر المنازل لأنه لم يحدث فيه احداث من قتال او فقدان ماء مما يستدعي ان تبقى محفوظة في محفوظ الرواة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فينقلوها ولا سيما اذا اعتبرنا ان فتح عين التمر الذي ذكره ابن اسحق تمّ قبل ان اخذ خالد كتاب ابي بكر بالسفر الى الشام .

وهذه الطريق تبدأ من الحيرة مارة بالرهيمة والقرعاء ووقصة وحبكة والصوير وسكاكة والقارة وتنتهي بدومة الجندل ، ثم تمر بوادي السر الى قراقر . والقرى والمياه موفورة في الوادى الذي يعد من الواحات المشهورة في بادية الشام لكثرة المياه فيه . وتبلغ المسافة من الحيرة الى قراقر اكثر من ستمائة وخمسين كيلومتراً .

ما هو السبب الذي حدا بخالد على ان يترك الجادة بين دومة الجندل وبصرى وهو الطريق الممتدة نحو الشمال الغربي وينحرف من قراقر الى الاتجاه الشمالي ويفوز الى سوى في ارض : « اذا ما سار فيها الجيش بكى ما سار فيها من قبل إنسي يرى »

ويبدو من رواية ابن اسحق ان الدليل (رافع) حذّر خالداً من اجتياز هذه المفازة وقال له : « انك لم تطق ذلك بالخيل والأثقال . والله ان الراكب المفرد ليخافها على نفسه ، وما يسلكها الا مفوزاً ؛ انها خمس ليال جياد ، لا يصاب فيها ماء مع مضلتها . » . وعلى الرغم من تحذير رافع هذا خالد فانه أصرّ على رأيه . ويتضح من رواية سيف بن عمر ان رجال خالد بعد ما سمعوا أقوال رافع ترددوا ، الى أن قام خالد بهم خطيباً ، مشجعاً لهمتهم . لم يذكر ابن اسحق سبب انحراف خالد عن الجادة ولكن سيف بن عمر ذكره بقوله ان خالداً كان يريد طريقاً يخرج به وراء الروم ولا يريد ان يستقبلهم فيمنعونه من غياث المسلمين .

لا نعلم على وجه الصحة المواقع التي كان المسلمون مجتمعين فيها في الشام أثناء سفر خالد . والذي أثبتته الروايات ان خالد بن الوليد لما خرج من مرج راهط وانتهى الى قناة بصرى التقى بالمسلمين فيها . واختلفت الروايات فيمن كان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

حاضراً في بصرى . فابن اسحق روى ان ابا عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن ابي سفيان كانوا على بصرى . اما رواية سيف بن عمر فتنص على ان خالد بن الوليد ، وحده فتح بصرى . ولم يذكر الواقدي من كان من المسلمين في بصرى واكتفى بأن قال انه قيل ان خالداً أتى الجابية وبها ابوعبيدة في جماعة ، فالتقيا ومضيا جميعاً الى بصرى . وأما المدائني فتنتهي روايته بوصول خالد الى مرج راهط ، وروى موسى بن عقبة ان خالداً قدم الشام وبه يومئذٍ ابو عبيدة . واكتفى اليعقوبي بقوله ان خالداً بعد ان فوز وافى المسلمين فافتتحوا بصرى . وروى اللالطائي ان خالداً خرج من ضمير فوجد المسلمين في الجابية . وذكر ابن عساكر ان ابا بكر أمر خالداً ان يأتي الشام فيلقى بها ابا عبيدة ومن معه من المسلمين . واكتفى ابن خلدون بالقول ووافى خالد المسلمين مكانهم عندما وصل ماهان الروم ايضاً .

لا جرم ان من الصعب اثبات مواقع جند المسلمين في الشام اثناء سفر خالد . اما ان يكون جند المسلمين في الجابية حين وصول خالد الى الشام فلا نحسب انه صحيح ، ومن أشاروا الى ذلك كانوا رواة جعلوا معركة اليرموك في سنة ثلاث عشرة من الهجرة وذكروا أنها كانت بعد وصول خالد الى الشام . على حين ثبت ان معركة اليرموك وقعت في سنة خمس عشرة وان معركة اجنادين وقعت في جنوبي فلسطين سنة ثلاث عشرة ، أي بعد نجدة خالد جيش المسلمين[1] . ورواية أن ابا عبيدة كان في بصرى قبيل وصول خالد اليها ، رواية تحتاج الى تمحيص ، لأن خبر مجيء ابي عبيدة الى الشام في سنة ثلاث عشرة غير متفق عليه . والثابت ان ابا بكر أوفد ابا عبيدة الى الشام بعد تسريح الجنود اليها بمدة غير قصيرة . وهناك ما يشير الى أن ابا بكر أراد أن يعقد لأبي عبيدة فاستعفاه من ذلك .

(١) أفضنا في مقال لنا نشر في مجلة المجمع العلمي العراقي ، (المدد الثاني) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ذكر البلاذري ان الثابت ان عمر ولّى ابا عبيدة الشام كله حين استخلف . ومن المعلوم ان عمرو بن العاص لما لقي مقاومة عنيفة في جنوبي فلسطين انسحب الى الغمر ، الواقع في وادي العربة في انتظار ورود المدد ؛ ولعل شرحبيل بن حسنة الذي وجهه ابو بكر الى كورة الأردن كان معسكراً قريباً من الغمر . أما يزيد بن ابي سفيان الذي وجهه أبو بكر الى البلقاء فكان يقيم مع جنده فيها ، ينتظر ورود خالد . لهذا نحسب ان خالداً عندما وافى قناة بصرى كان يزيد بن أبي سفيان قد وصل اليها بعد أن بلغه خبر وصول خالد الى الشام . ويجوز ان خالداً بعد وصوله مرج راهط وتغلبه على الغسانيين أرسل رسولاً الى يزيد بن أبي سفيان وطلب اليه أن يتقدم نحو بصرى .

يتراءى لنا أن جند العرب كانت معسكرة في شرقي الأردن من الغمر الى البلقاء . وفي رواية سيف بن عمر أن خالداً كان يريد أن ينفذ الى الشام من محل ليس للروم فيه معاقل وحصون حتى لا تحبسه عن نجدة المسلمين . وقد يسأل سائل لماذا لم ينفذ خالد الى المسلمين ، اذا كان يعلم انهم مرابطون في شرقي الأردن ؟ فيتوجه غرباً من الطريق الأقصر ، والمسافة بين قراقر ومواب (قرب الكرك) مائتان وستون كيلومتراً أي من أربع مرحلات . ويدل صدوف خالد عن الذهاب الى مواب انه علم ان المسلمين لم يكونوا فيها ، وانما تقدموا الى الشمال .

ولا يستطيع خالد أن ينفذ الى المسلمين من هذا الطريق من دون ان يصطدم بالحصون والقلاع والمخافر التي كانت تحمي شرقي الأردن من جهة البادية . ولم تكن هذه البلاد وقتئذ تحت سيطرة المسلمين لأنهم كانوا في بداية الفتوح . ويظهر من الروايات ان قصبة مواب لم تفتح الاّ بعد سقوط بصرى . أضف الى ذلك أن الروم بعد اصطدامهم بالمسلمين في جنوبي فلسطين لا بدّ انهم احتاطوا فسدوا منافذ البادية من جهة الشرق وحثوا أهل البلاد على الدفاع عنها بالاشتراك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

معهم . لهذا لا يعقل ان خالداً بعد وصوله الى قراقر متكتماً ، يقتحم بلاد الشام في منطقة لا بد له من الاصطدام بحصونها ومناجزة أهلها . ويتضح من عزمه على النفوذ الى الشام بطريق (قراقر ـ سوى) انه كان يرى مباغتة الروم في النفوذ اليهم من باب لم يتوقعوا ان يتسلل المسلمون منه .

ذكر موسل في كتابه البادية العربية [1] : ان البدو يدخلون الشام من بادية الشام من منفذين : المنفذ الأول في جنوبي غربي بصرى وجبل حوران . والثاني في شمالي شرقي دمشق بين سلسلة الرواق وتلول الاعطيات . وفي المنفذ الأول تحدد شعبان الزرقاء من جهة وجبل حوران من جهة أخرى حركة البدو . لقد اختط خالد في اول الأمر ان يدخل سورية من المنفذ الأول ، ولما علم ان العدو يسدّ منافذه غيّر اتجاهه الى المنفذ الثاني أي انه بمروره بطريق (الحيرة ـ دومة الجندل) [2] أراد أن يسلك وادي السر حتى يبلغ أذرعات وهي باب الشام من الجنوب الشرقي .

واذا سهل الوصول الى المنفذ الأول بالمرور من وادي السرحان وفيه مياه كثيرة ، فمن المتعذر الوصول الى المنفذ الثاني الا بعد هطول أمطار غزيرة في الشتاء تملأ الأودية والجوابي . شمخ جبل حوران بتممه بين المنفذين المذكورين ، في شرقه المنطقة البركانية المخيفة التي قامت حافتها سوراً أسود يتجه في سمت الشمال .

ويبلغ عرض المنفذ الأول نحو ثلاثين كيلومتراً يحده من الغرب جبال الزرقاء الوعرة ومن الشرق الحمم البركانية ولقد شيدت قلعتا بصرى وعمان وأقيمت حصون الحرانى والأزرق والحلاّبان للدفاع عنه . وكان الروم يحتلون

(١) البادية العربية Arabia Dezerta ص (٥٥٧ — ٥٥٨ — ٥٥٩) .

(٢) تشير رواية عبد الوهاب بن مبارك الى ان خالداً سار من الحيرة الى قراقر بطريق دومة الجندل ، ابن عساكر : الجزء الثاني (ص ١٢١٩) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذه القلاع والحصون ، وكان العرب المتنصرة يرابطون في أطرافها . ولا بد من أن خالداً علم ذلك من عيونه .

يقع ماء قراقر على الطريق الموصل الى المنفذ الأول ، بينما تقع سوى على الطريق الموصل الى المنفذ الثاني . والذي يسير من قراقر الى سوى يتوجه أولاً الى الشمال الشرقي ويسير خمسين كيلومتراً في منطقة بركانية ، ثم يجتاز مفازة طولها خمسة أيام متوجهاً الى الشمال من دون انحراف . وفي الأيام الأربعة الأولى يشاهد المسافر عن يساره كتلاً من الحمم ، قامت فيها قنن منفردة ، وعرة تهدي خطاه . وفي بداية اليوم الخامس يرى ان الحمم توجهت الى الشمال الغربي نحو المنفذ الثاني . وينبغي له هنا ان يترصد الأطراف بدقة للعثور على الوادي الضحل وفيه آبار (سبع بيار) .

ويظهر مما ذكره موسل ان للقادم من بادية الشام منفذين للدخول الى أرض الشام ، منفذ جنوبي بين جبل حوران في الشرق وجبل عجلون في الغرب ومنفذ في الشمال بين سلسلة الرواق الممتد نحو الشمال الشرقي من ضمير الى تدمر وبين الحرات التي تبدأ من جنوبي ضمير وتمتد الى الجنوب موازية جبل حوران حتى جنوب قراقر . ويستطيع المسافر المنفرد أو جماعة ان يدخل الى بلاد الشام من محال أخرى ولكن قوة كبيرة فيها فرسان على ظهور الخيل لا تنفذ الى الشام إلاّ من المنفذين المذكورين لأن طريق دومة الجندل وطريق تدمر هما طريق القوافل لنقل التجارات بين العراق والشام .

ويلوح لنا أن خالد بن الوليد اعتزم حين استلامه أمر ابي بكر أن يسير الى الشام من طريق دومة الجندل وكان قد افتتحها في السنة الماضية ووطد أقدام المسلمين فيها ولا بدّ أن أهلها ذكروا له أخبار القتال في جنوبي فلسطين وحشد الروم جيوشهم واستنفارهم للغسانيين . والعرب المتنصرة الآخرين وانزالهم للمرتزقة العرب في بعض الأماكن والحصون . لقد ذكر تئوفانوس ان العرب كانوا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

نافرين من بيزنطية لأنها قطعت أعطياتهم بسبب ضعف المالية في الامبراطورية بسبب حرب الفرس . وزعم ان هذه النفرة ساعدت المسلمين على فتوحاتهم . صحيح ان بيزنطية لم تكن في وضع مالي حسن وانها لم تستخدم المرتزقة كالسابق بعد انتصاراتها العظيمة على الفرس في عهد هرقليوس ولكنها حين علمت بغزو العرب جنوبي الشام كان ينبغي لها ان تستخدم بعض المرتزقة وتقدم الأعطيات للغسانيين وغيرهم ممن خدموها في حروبها مع الفرس . وهناك روايات تشير الى ان خالد بن سعيد حينما توغل في مشارف الشام من دون أن يحتاط ، باغته العرب من مناصري الروم وهزموه . ولا يستبعد أن خالداً علم من أهل دومة الجندل أخبار الروم فأدرك أن الدخول الى الشام في المنفذ الجنوبي صعب وأنه ليس من الحزم المجازفة بقوته في اختراق الحصون التي توصد في وجهه باب ذلك المنفذ ، كقلعة بصرى وغيرها . ولعل أخبار الروم وصلته في طريقه من دومة الجندل الى قراقر ، لأن أهل وادي السر كانوا على اتصال مستمر بالشام . ولما وصل قراقر اختمرت في رأسه فكرة الدخول الى الشام من منفذ آخر يخرج منه وراء جموع الروم ، فطلب الى الدليل رافع بن عميرة الطائي أن يدله على الطريق ، فعزم أن يقطعه رغم الصعوبات التي سيلاقيها في طريقه هذا . ونشأت الصعوبة في قطع المفازة بين قراقر وسوى في تدبير الماء للخيل لأنه ليس في المفازة ماء ولأن الوقت ليس موسم الأمطار كما سيظهر لنا .

كيف دبر خالد أمر الماء في قطعه المفازة ؟

لقد دُبّر أمر الماء على الطريقة التي كانت شائعة في غزوات البدو . والبدو كان من عادتهم اذا اضطروا الى اجتياز مفازات في غزواتهم يجعلون أجواف بعض إبلهم مخازن ماء سيارة ، لا سيما اذا أرادوا أن يباغتوا عدوهم ويخرجوا اليه من أماكن لا يتوقع خروجهم منها . وطريقة تدبير الماء تتلخص

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في ارواء الجمال العظام ، السمان المسنة ، بعد أن يظمأن أو يجهدهن العطش وذلك بسقيهن نهلاً وعللاً ، ثم يشد أفواههن حتى لا يجترون فيفسدن ما في كراشهن من الماء .

وفي هذا الصدد ذكر موسل[1] ما يلي : «ان البدوي اذا أراد أن يهيج ظمأ الناقة يأخذها الى محل الماء ويعقلها قريباً منه ويصب الماء في الوعاء الذي تشرب منه ، ثم يضرب الماء براحته ، ويحرضها على الشرب بالشدي (أغنية قصيرة) وبتصفيق خاص . ترى الناقة كل ذلك وتسمعه ولكنها لا تستطيع الوصول الى الماء ، لهذا تمد أذنيها شوقاً الى الماء .. يتدرب كثير من الابل بهذا التحريض والتصويت وهي تفهم بسليقتها انها تعدّ لسفر طويل في صحراء قاحلة وان عليها أن تشرب وتعبّ كثيراً . واذا عقلت النوق وسمعت ما اعتادت سماعه من التصفيق والغناء مدت آذانها نحو الماء وأظهرت لهفتها الى الماء بأنين خاص . وبقدر ما يكون الماء قريباً منها فان المرحلة أمامها طويلة وانها لن يعثر فيها على ماء . واذا أحلّ عقالها أسرعت الى الوعاء وشربت جرعات طويلة كبيرة . فيصب صاحبها الماء في الوعاء ما دامت تشرب . ثم يبعدها عن الماء ويتركها ترعى .. ولشدة ما يجهدها العطش ، تختلج ، ثم يفك عقالها فتشرب مرةً أخرى . وبهذه الطريقة تشرب الناقة السمينة العظيمة من ستين الى سبعين لتراً من الماء . وأخيراً يشد افواهها لكيلا ترعى وتجتر فيختلط الماء بالكلأ في أكراشها» . هكذا تُسقى في المرة الأولى نهلاً وفي المرة الثانية عللاً .

ويتضح مما قاله موسل ان كابتاني لم يصدق الروايات القائلة بشق كراش الابل في كل يوم وشرب ما في كراشها رغم اجماع الرواة . وعد خبر الروايات هذه من نسج الخيال ، وقال انه اذا كان الغرض هو حمل الماء ، فلا حاجة لهذا العمل الفظيع ، لأن الجمل يحمل على ظهره من الماء أكثر مما يشربه مرات .

(١) البادية العربية ، ص (٥٧٠) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولكن موسل شجب قول كايتاني قائلاً : ان كايتاني نسي ان القرب كانت مفقودة عند خالد ، لأنه حينما غادر الحيرة لم يأخذ القرب معه ، لأن الطريق التي سار بها من الحيرة الى قراقر كانت عامرة بالمياه للرجال والخيل والجمال . ولكنه حينما اعتزم في قراقر أن يفوز الى سوى كان لا بد له من أن يفكر في سقي الخيل في المفازة لأنها لا تتحمل العطش .

والإبل اذا سقيت نهلاً وعللاً على الطريقة المذكورة فانها تتحمل العطش . وفي وسع الرجال أن تحمل ماءها على ظهور دوابها . وليست قراقر بلداً توجد فيه القرب وفيها الماء فقط . لهذا استعمل خالد الطريقة الشائعة في البادية . ويبدو مما ذكره موسل أنها لا تزال شائعة عندهم . واذ لم تكن القرب متيسرة في قراقر حملت الإبل الماء في جوفها بدلاً من أن تحمله على ظهورها . وذكر موسل انه ليس في عمل خالد ذلك شيء يستدعي العجب ، لأن قوته كانت بحاجة الى الطعام ؛ فالإبل التي تنحر وتشق بطونها يأكل الجند لحومها . أما الماء الذي يستخرج من كراشها فبعد ركوده يصلح لشرب الخيل واذا ما مزج بلبن النوق كما أشار اليه سيف بن عمر في روايته يشربه الرجال .

واذا كان عدد الإبل التي استخدمت للماء وللنحر خمسين دابة وشرب كل منها ستين ليتراً من الماء فتكون قد حملت ثلاثة آلاف لتر من الماء ، أي مايكفي لارواء مائة جواد خمسة أيام . وأضاف موسل قائلاً ان أرض المفازة اذا أمطرت في الشتاء يسقط الجواد على الكلأ وهذا ما يجعل ستة لترات من الماء ترويه يومياً .

وبعد أن دبر خالد أمر الماء تقدم نحو سوى . لم يذكر ياقوت اسم سوى . أما البكري فقد رسم سوى بفتح أوله ؛ ويظهر مما كتبه انه ماء ولكنه لم يحدد موقعه . وفي بيت للنابغة انه في ديار كلب :

نجالة الذنابة أو سوى مضنة كلب من مياه المناظر ؟

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد جعله موسل كما تقدم في أرجاء سبع بيار على طريق السيارات بين الرطبة وخان ابي الشامات . وقد شيد الافرنسيون فوق الرابية المشرفة على الشعيب مخفراً للدرك . والمخفر يرى على يمين الطريق للقادم من الرطبة والبدو يلفظونه كما رأى موسل بسكون أوله . وفي رواية لسيف بن عمر ان محرز بن جريش المحاربي ولعله من أهل تلك الديار قال لخالد : « اجعل كوكب الصبح على جانبك الأيمن ، أمه تفض الى سوى . » وقد أكد عبد العزيز العقيلي ان المسافر من قراقر اذا وضع نجمة الصباح على جانبه الأيمن يصل الى سبع بيار .

طه الهاشمي

(يتبع)

---

(١) بادية العرب ، (ص ٥٥٩) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net